# أبعاد شخصية
# السيدة فاطمة الفهرية أم البنين

●د. فاطمة نافع
أستاذة التعليم العالي
بكلية الآداب فاس سايس

تميزت المرأة في الغرب الإسلامي بالحضور الواعي والمسؤول عبر مفصليات الحياة المجتمعية، حيث مارست الفعل التاريخي جنبا إلى جنب مع الرجل، وعملا معا على توثيق روابط النسيج الاجتماعي وتمتين حبكته، إيمانا منهما بأن انسجام شبكة العلاقات الاجتماعية هو الذي يؤمن بقاء المجتمع ويحفظ له شخصيته، وهو الذي ينظم طاقته الحيوية التي تتيح له أن يؤدي دوره في التاريخ.

وبذلك سجلت المرأة حضورها في مواقع متعددة، فلمعت أسماء عالمات وفقيهات وشاعرات وأديبات ومستشارات سياسيات، هذا إلى جانب دورها الأسري داخل الخلية الأولى في البنيان المجتمعي، حيث خرجت أجيالا من القادة والعلماء، وصاغت العقلية والذهنية الجمعية وفق منظومة قيمية وسلوكية وأخلاقية نابعة من روح الإسلام.

ونتوقف بين يدي شخصية نسائية كان لها أثرها العميق في تاريخ المغرب الأقصى، وتاريخ مدينة فاس، على عهد الدولة الإدريسية، تناغما مع دورها الجليل الذي اضطلعت به عبر إنشائها لمعلمة غيرت الوجه الثقافي للمغرب، فتحول من بلد مستقبل لأنواع المعارف إلى منتج لها، جراء الحراك العلمي الذي شهده هذا الكيان، مشكلا بذلك نواة إحدى الجامعات الإسلامية العريقة. إنها **السيدة فاطمة الفهرية** التي عمقت وجودها ونحتته ضمن التاريخ المغربي، ونتعرف على هذا الوجود بملامسة بعض المعطيات حول الأرومة والمحتد الذي انحدرت منه هذه الشخصية، وحول بصمتها التاريخية بالمغرب الأقصى.

## أصالة الشخصية

تنحدر السيدة فاطمة الفهرية الملقبة بأم البنين، من بيت قيرواني، والدها محمد بن عبد الله. الفهري القيرواني، نسبة إلى مدينة القيروان إحدى حواضر العالم الإسلامي إبان العصر الوسيط، أسسها عقبة بن نافع سنة 50 هـ، بهدف اتخاذها موقعا استراتيجيا لحركة الجيش الفاتح. وأدى تطور حركة العمران بها وازدهار اقتصادها إلى أن تصبح عاصمة سياسية مركزية لثلاثة دول بالغرب الإسلامي : دولة الأغالبة، ودولة الفاطميين، ودولة بني زيري الصنهاجيين، علاوة على دورها العلمي،

فقد كانت ملتقى المدارس الفكرية المختلفة ومحط رحال الدارسين ورجال الفكر والعلم[1].

وتذكر المصادر التاريخية أن أهل القيروان وفدوا على إدريس الثاني في مدينة وليلي، يقول ابن أبي زرع، في كتابه : «الأنيس المطرب» : «وفي سنة تسع وثمانين ومائة، وفدت على إدريس رضي الله عنه، وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس،.... فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم، وقربهم ورفع منازلهم، وجعلهم بطانته»[2].

> تبدو السيدة فاطمة الفهرية أم البنين، من خلال ما ساقته المصادر عنها، على درجة وعي عالية بأهمية الدور المنوط بها اتجاه مجتمعها

ويقول أيضا : «فأتى وفد القيران إلى إدريس رضي الله عنه، في جمع كثير بعيالهم وأولادهم»[3]. ويذكر الناصري، في كتابه «الاستقصاء» : «عن أهل القيروان كانوا ثلاثمائة بيت»[4].

وما تفيده هذه النصوص أن الهجرة كانت هجرة أسرية أي أنها كانت بهدف الاستقرار النهائي في ظل الدولة الإدريسية، ويورد الحبيب الجنحاني، في كتابه «القيروان»، أن السبب الرئيس لهذا الانتقال كان سياسيا، ناجما عن سخط القيروانيين ومعارضتهم لممارسات حكم الأغالبة[5].

فلما تم بناء المولى إدريس الأزهر، لمدينة فاس، أسكن الوافدين عليه من الأندلس في جانب منها، سمي «**عدوة الأندلس**»، وأسكن الوافدين عليه من القيروان في جانب آخر سمي«**عدوة القيروانيين**»، ونظرا لكثرة استعمال لفظة القيروانيين خففت مع مرور الزمن فأصبحت تعرف بعدوة القرويين[6].

يورد الجزنائي في مصنفه، «زهرة الآس» : «ولما فرغ الإمام إدريس من بناء أسوار المدينة وجامع خطبتها أنزل القبائل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت لذلك عدوة الأندلس، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها، فسميت لذلك عدوة القيروانيين[7]. وقد نقل هؤلاء النازحون الكثير من مظاهر الحضارة القيروانية التي أرخت بظلالها على العاصمة الإدريسية، لاسيما وقد اختار السلطان إدريس الثاني، المقام بين هؤلاء القيروانيين بمعية رجال دولته وحاشيته.

وتخبرنا المصادر التاريخية عن الأنشطة الاقتصادية التي مارسها القيروانيون عقب استقرارهم بمدينة فاس : «يقول ابن أبي زرع في «الأنيس المطرب» وأهل عدوة القرويين أهل رفاهية ونخوة في البناء واللباس والفراش والمطعم والمشرب وأكثرهم صناع وتجار...»[8]. مما يعطي انطباعا عن وجود أرستقراطية قيروانية ذات طبيعة اقتصادية، الأمر الذي يؤكده مستوى الثراء الذي بلغه محمد بن عبد الله الفهري والد **السيدة فاطمة** وما بلغه زوجها. وهو ما عبر عنه ابن أبي زرع : «... فورثت مالا جسيما»[9]، والجزنائي بقوله : «وتحصل لهما[01] بالميراث مال كثير»[11] وهذا يشير إلى ثروة طائلة.

## أم البنين في خضم الحدث التاريخي

تبدو السيدة فاطمة الفهرية أم البنين، من خلال ما ساقته المصادر عنها، على درجة وعي عالية بأهمية الدور المنوط بها اتجاه مجتمعها، وعلى امتلاكها عقلية البناء العام حيث الرجل والمرأة ينصهران في بوتقة بناء الذات الكبرى أي الأمة، وحيث المرأة تتفاعل مع المجتمع بروح البناء أيا كان موقعها، وظهر هذا جليا في تدبيرها لإمكاناتها المادية، فقد أسهمت في حركة العمران التي شهدتها مدينة فاس في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن ادريس، وانخرطت ضمن القائمين على هذه العملية الحضارية، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون : «واستجدت فاس في العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض...

واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين.. فاختطت المسجد الجامع...»[12].

وهذا التوجه الصحيح ينم عن إدراكها للدور الدقيق الذي يؤديه المسجد على مستوى التعبد والتعليم والتفقيه، وأثره الحاسم في بناء المجتمع المتكامل عقديا ووظيفيا وسلوكيا.

والإجراءات المتبعة لبناء جامع القرويين، خضعت لنوع من المقاييس والمعايير تكشف عن بعدين من أبعاد شخصية السيدة فاطمة الفهرية، أولها عقلي معرفي، وثانيها وجداني سلوكي.

أ-فما هو عقلي معرفي، يتعلق بحيازتها القانونية للأرض التي بني عليها الجامع، يذكر ابن أبي زرع : «وكان موضع جامع القرويين أرضا بيضاء يعمل بها أصناف الجص، وبها أيضا أصناف من الشجر لرجل من هوارة كان قد حازها والده قبله حين بنيت المدينة»[13]. فاشترتها منه فاطمة بنت محمد الفهري، ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من إرثها من أبيها، كما ذكر الجزنائي[14].

ثم بالكيفية التي انتهجتها في الحصول على مواد البناء، فقد حرصت على ألا تستعمل في بناء الجامع إلا المواد المستخرجة من باطن الأرض التي اشترتها بمالها الخاص. وأصدرت أوامرها إلى العمال للقيام بذلك، مع تحمل كافة التكاليف المادية اللازمة. يذكر الناصري في مؤلفه «الاستقصاء» : «وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها، مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت في أعماقها كهوفا، وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان، وتبني به، وأنبطت بها بئرا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك..»[15].

وشرع في البناء يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين 245 هـ، وأمرت أم البنين بحفر الأساسات وإقامة الجدران، وكانت تشرف بنفسها على شتى أطوار البناء، وتراقب عمل البنائين، ولا غرابة أن تكون على دراية بأمور البناء وأصول التشييد، نظرا لما اتسمت به من مهارة ودقة في الإشراف، لذلك ظهر الجامع عند إكماله، في أتم رونق وأجمل زخرفة، واسع الأرجاء رحبا كما تصفه المصادر.

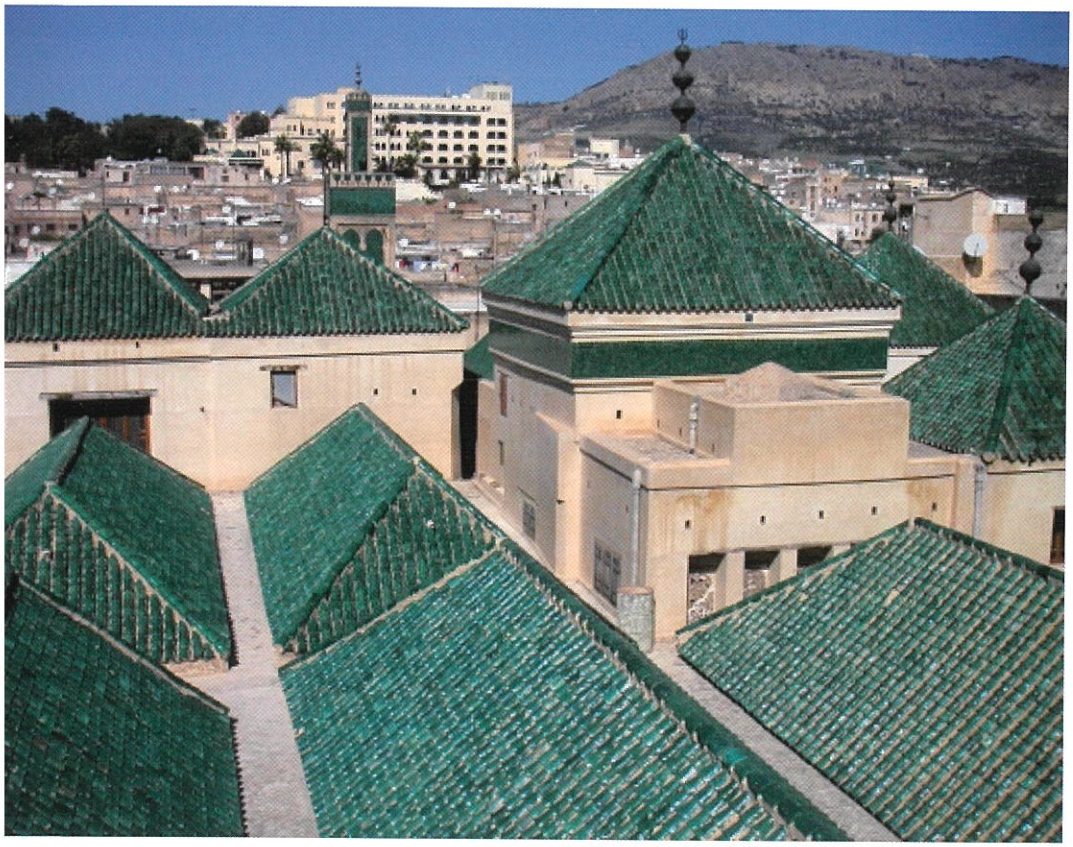

خضعت الإجراءات المتبعة لبناء جامع القرويين لنوع من المقاييس والمعايير تكشف عن بعدين من أبعاد شخصية السيدة فاطمة الفهرية، أولها عقلي معرفي، وثانيها وجداني سلوكي

مما ينبئ بأن مشاركتها في الميدان العمراني كانت عن وعي وتدبر وتخطيط وإدراك. ونظير هذا ما ذكره ابن خلدون عنها في هذا الإطار: «فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها»[16].

فهي بعملها الرائد هذا قد حفزت إرادة وهمم الملوك الذين أتوا بعدها، لإتمام ما بدأته لدى تشييدها لهذا الأساس الذي غدا جامعة طبقت شهرتها الآفاق في العالم الإسلامي والعالم الأوربي.

ب-أما ما هو وجداني وسلوكي فيتجلى في صلاح السيدة فاطمة الفهرية، يسمها المؤرخ ابن أبي زرع بقوله: «... امرأة مباركة صالحة اسمها فاطمة... فورثت مالا جسيما حلالا طيبا ليس فيه شبهة ... فأرادت أن تصرفه في وجوه البر وأعمال الخير..»[17].

فتحريها في مسألة الموارد المالية، وحرصها على الإنفاق في أوجه الخير، له دلالات عميقة على بعد فطري أساسه الصلاح والنقاء الراسخ في أعماق النفس، والمتجذر في حنايا الوجدان. ويثمن هذا قول نفس المؤرخ: «ولم تزل فاطمة القيروانية المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم، وصلت فيه شكرا لله تعالى الذي وفقها لأعمال الخير[18].

فكان احتفالها بإتمام عملها، الشكر لربها الذي هيأ لها بناء هذا الصرح، وإقامة هذا المعهد العلمي الشامخ، الذي تحول إلى مركز إشعاع علمي نافس المراكز العلمية بقرطبة وبغداد ودمشق وغيرها.

وقد وصفه عبد الواحد المراكشي في كتابه: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، أثناء حديثه عن مدينة فاس، قائلا: «حاضرة المغرب... وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة... رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة... فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة ... ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب...»[19].

والفضل يعود في هذه المكانة التي تسنمتها مدينة فاس إلى جامع القرويين الذي أصبح قبلة لأهل العلم والمعرفة يؤمونها من شتى أنحاء المغرب، ومن كل أصقاع العالم الإسلامي.

إن هذا التعاطي لضروب المشاركة في أوجه الحياة الاجتماعية، والفعالية والإيجابية ضمن حركة المجتمع، يموقع السيدة فاطمة الفهرية أم البنين ضمن عينة النساء اللائي شكلن فسيفساء متعددة الأبعاد والمنازع، مع غلبة الورع والاستقامة ومثالية السلوك، كان لهن أثر بارز في مسار التاريخ المغربي.

---

1 -انظر، الحبيب الجنحاني، القيروان: التأسيس والازدهار، تونس 2010.
2 -ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 35.
3 -نفسه، ص: 68.
4 -الناصري، الاستقصاء، ص: 167-166.
5 -الجنحاني، القيروان، ص: 111. وانظر، مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال
6 -حسن عزوزي، إسهام الجامعات الإسلامية في الحضارة الإنسانية، ص: 21.
7 -الجزنائي، زهرة الآس، ص: 64.
8 -ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: 52.
9 -نفسه، ص: 68.
10 -لهما يقصد السيدة فاطمة الفهرية وأختها مريم.
11 -الجزنائي، المصدر السابق، ص: 81.
12 -ابن خلدون، تاريخ، الجزء الرابع، ص: 20 تحقيق خليل شحاذة وسهيل زكار.
13 -ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: 68.
14 -الجزنائي، مصدر سابق، ص: 72.
15 -الناصري، الاستقصاء، الجزء الأول، ص: 176، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري.
16 -ابن خلدون، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص: 20.
17 -ابن ابي زرع، مصدر سابق، ص: 68.
18 -نفسه، ص: 69.
19 -عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 289، 290، وانظر عزوزي، إسهام الجامعات، ص: 25.